

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً Druz "Representations of Artistic and Cultural Identity in Exil Narratives of Belgrade as a Model

عبد الرحيم بوقفة¹ ، مخبر علم تعليم العربية ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ، الجزائر ،

abderahim.bougoufa@ensb.dz

أحسن الصيد² ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ، الجزائر ، hassan.mwefek@ensb.dz

تاريخ قبول المقال: 2024-11-27

تاريخ إرسال المقال: 2024-08-05

الملخص :

تتولد الهوية السردية بفعل التحالفات القائمة بين الزمن والتاريخ، ومن خلال تحريك الشخصيات وتوالي السرد يكتسب الأشخاص والجماعات هويات معينة ، ذلك أنّ تسريد الأحداث التاريخية وحياتها بنسيج الحاضر يمنحنا فهماً أعمق لهوية الذات في سياقاتها المنعزلة وفي خضم الجماعة على السواء ، فالإدراك الموائم لهوياتنا الخاصة يستلزم إدراكاً سردياً لكيفية توصلنا لنكون ما نحن عليه ، تسعى هذه الورقة البحثية للبحث والتنقيب عن تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

الكلمات المفتاحية : الهوية السردية، الحكمة، التاريخ، الزمن .

Abstract:

Narrative identity emerges through the alliances between time and history. Through the weaving of characters and the succession of narration, individuals and groups acquire distinct identities. Narrating historical events and intertwining them with the fabric of the present grants us a deeper understanding of self-identity in both isolated contexts and within communities. Perceiving our own identities requires a narrative awareness of how we came to be who we are. This research paper seeks to explore the means and mechanisms through which individual and collective narrative identities are shaped in the imagination of Rabee Jabir's " Belgrad's Druz."

Keywords : Narrative identity, Plot, History, Time.

* عبد الرحيم بوقفة.

مقدمة:

تختص الهوية بمفاهيم متباينة طبقاً لعدد المجالات التي تتجاذبها، وهو ما يجعلها مراوغة و زئبقية . لكن تماهي الهوية مع السرد والتاريخ و محاولة القبض عليها خلال الزمن يحد من زئبقيتها. بيد أن الكتابة التاريخية والسرود التخيلية يتقاسمان الشكل السردي ويتشاركان في العمق الزمني للتجربة البشرية . على اعتبار أن كلاً من السرود التخيلية والتاريخ يهدفان لفهم التجربة الإنسانية عبر تشكيلها في قوالب سردية تضمن ظهور الأحداث في إطار زمني دال ومترابط. وهو ما اصطلح عليه كل من بول ريكور **Paul Ricœur** و هايدن وايت **Haiden white** " بصياغة الحكمة أو التحريك " استكمالاً منهما لمسيرة أرسطو في حديثه عن الشعرية. يشير مفهوم التحريك هنا إلى التركيب المنتظم الذي تستحيل عبره الوقائع المتناقضة والأحداث المتضاربة واقعية كانت أو مختلقة إلى حكاية منسقة ودالة . إن الكثير من الجماعات يستمدون أنطولوجيتهم عبر سردهم الخاص حصراً أو من خلال تحريكهم للتاريخ الخاص بهم . وهو ما يؤكد على أن الهوية لا تتأى بنفسها عن التحريك ، أي أن التحريك يغدو مكوناً داعماً للهوية وهو ما يمثل " الهوية السردية " وفقاً لما رآه بول ريكور، الذي يقول بفاعلية السرد في صياغة الهوية ودوره في إعادة تشكيلها تماماً بالكيفية ذاتها التي يعمل التحريك من خلالها على تنظيم التاريخ وإعادة تركيبه . ما يجرنا إلى القول بسردية الهوية، على اعتبار السرد مستوعباً ومحتوياً لما تتأفر من مكونات الهوية في إطار منسجم ذي حبكة متماسكة، ومن هنا كان مدار الإشكال في هذه الورقة البحثية يتمحور حول التساؤلات الآتية : ما هي الآليات التي تتشكل من خلالها الهوية السردية للفرد و الجماعة في رواية دروز بلغراد ؟

- كيف أسهم الفضاء بتقاطعاته المختلفة في تشكيل الهويات الفردية والجماعية ؟

- ما مدى تأثير المنفى في بناء دلالة الهوية السردية وكيف تم تأويلها ؟

إن غاية هذه المقاربة هي الفهم الجاد للطريقة التي تسهم عبرها الظروف التاريخية والعوامل السياسية والاجتماعية في بناء الهوية السردية والإقرار بفاعلية النصوص المستندة للتاريخ في تقديم هويتها السردية الخاصة بها.

المبحث الأول: مدخل تمهيدي لعتبات الرواية

يتطرق هذا المبحث للعتبات التي تعين القارئ على استكناه الأبعاد السردية التي بني عليها ربيع جابر متخيله باعتبارها مفاتيح موجهة و ضابطة لمسار القراءة يمكن من خلالها الولوج إلى الحبكة التي ينتظم عبرها السرد.

المطلب الأول : العنوان وعتبة الصراع الطائفي:

تُستهل الرواية هنا بعنوان مراوغ "دروز بلغراد" مع يقيننا بانتقاء وجود هذه الطائفة في بلغراد، ليكتشف القارئ بعدها أن الاستهلال التدشيني الموجه لمسار التلقي هو الآخر كان مخاتلاً ، حين ادّعى ربيع جابر أن عمله نتاج خياله ، ذلك أنها مستقاة من صميم تاريخ الصراع الطائفي الذي أودى بلبنان إلى مهاوي الحرب الأهلية سنة 1860 ، وهو ما أكدته المراجع التي ختم بها الروائي عمله . إنّ خلوّ الرواية من التخيل ؛هو إفراغ لها من هويتها الفنية. لذا فالراوي هنا سعى لتضمين التاريخ الموضوعي تاريخاً متخيلاً حتى لا تكون تكراراً جافاً لما ورد في التاريخ.

تبدأ المأساة بضم حنا إلى قافلة المحتجزين،وبذلك تنطلق الحبكة بطابع بولييسي يمر عبر سردية روائية تزوج بين عاطفتي الشفقة والخوف اللتين أرساهما أرسطو في وسمه لهوية البطل التراجيدي ،يتوالى السرد وينفتح الحكي فيه على كثير من الدموية والتعذيب والرؤوس المقطوعة المتدرجة على الأرض،بينما يشعر حنا المسيحي بأنه دخیل بين الدروز فيصرخ منتفضاً ضدّ عدالة الرب (أين العدل!) يسعى جاهداً لإثبات براءته باستدعائه لانتمائه العرقي والديني ، لكنه مع كل محاولاته يرى ألواناً من العذاب تجعل هويته الدينية تتراجع لصالح الهوية التي تربطه برفقة المنفى إنها هوية الخوف والذعر من الموت، التي لم تترك مجالاً للمساحين سوى أن يتكاتفوا لخلق الروائي بذلك هوية خاصة تعلو على المرجعيات التي كانت الهوية ترتعن إليها سابقاً.

المطلب الثاني :تشظي الهوية من الجماعة إلى الفرد ومن الواقعية إلى السردية :

تراهن اللعبة السردية عند ربيع جابر في متخيلة "دروز بلغراد" على استدعاء تاريخ الصراع بين المسيحيين الموارنة و الدروز الواقع بجبل لبنان بتاريخ 1860، إذ تعيدنا إلى زمن الاشتباكات الطائفية بين الفئتين . يتمظهر الدروز في مستهلّ الحكي كهويّات متصلة تقيم نفسها على مناقضة الآخر ومفارقته ،وعلى امتداد السرد يظهر التناحر الذي يستمد مرجعيته من الأيديولوجيا الدينية العقدية. وبما أن

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

الأمم ذاتها سرديات و مرويّات فإنّ ربيع جابر ينتهج القصص سبيلاً لتأسيس هويّة للدروز، ذلك أن صياغة الهوية السردية للجماعات والأفراد هي الغاية من اندماج السرد والخيال¹ لمعظم الجماعات التي ترغب وتأمل في تشكيل هويّة متماسكة أو في تقوية روابط الانتساب لهويّتها تجنح نحو السرد المتخيّلة. وعلى هذا الأساس يقيم ربيع أنطولوجية الدروز من خلال تحريك حكايتهم ودمجها مع سرديّتهم التاريخية، تتبنى الرواية على المفارقة والتناقض فربيع جابر يسند إدارة مهمة السرد في متخيله لشخصية تنتمي لهويّة دينية مناقضة لهويّة الجماعة التي يُحبك السرد لأجلها .

فحنّا يعقوب المسيحيّ يروي قصة الدروز بوصفه يعيش تمزقاً هويّاتياً بين هويّته الدينيّة الأصليّة والهويّة التي ألبست له بفعل التفوّذ وإساءة الترجمة . إنّ صراخ حنّا يعقوب بأنّه المسيحيّ البيروتي الذي يقع بيته على حائط كنيسة مار إلياس الكاثوليك ، صيّره المترجم بأن السّجين يعترف بأنّه قتل البيروتي الذي بيته على حائط كنيسة "مار إلياس" الكاثوليك.

ينجر عن ذلك ارتحال هويّاتي وتنشظ لهويّة حنا يعقوب بكل مرجعيّاتها الإيديولوجية لصالح الهويّة الجديدة التي يتلبّسها ؛ هوية سليمان غفار الذي أطلق سراحه بعد وساطة والده . إن غاية هذا التصادم بين ذاته والذات التي اضطر لتلبسها يكمن في كونه يتيح نموذج التوافق المتضارب الذي نستطيع من خلاله تشكيل الهوية السردية للشخصية . ذلك أن "الهويّة السردية للشخصية لا تتقابل إلا بالانتلاف المتضارب في القصة نفسها"²

وبفعل ذلك تتولد الهوية الشخصية لحنا يعقوب التي تتراوح بين الهوية العينية le meme و التي يعنى بها دواخل حنا يعقوب الثابتة في شخصيته و التي ليست عرضة للتحوّل أو الاستعاضة منها ، كونه زوج هيلانة و كونه مسيحي يبيع البيض ، إنّها سمات ثابتة يؤكدّها توالي السرد وطول الزمن "أوشك أن أصبح كما في السنين البعيدة بيض. بيض مسلوّق"³

وبين هويته الذاتية التي تُستحدث بفعل التغيّر المستمر الذي يطال حنا يعقوب خلال الاثنتي عشرة سنة التي عاشها منفياً .

¹ - بول ريكور ، الوجود والزمان والسرد ، تر سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة 1، 1999، ص 251

² - بول ريكور : الوجود والزمان والسرد ، ص 260.

³ - ربيع جابر: دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب ، دار الآداب للنشر ، ط 1، 2001، ص 210

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

إنّ تشظي الذات الحادّ الذي عرفه حنا في خضمّ التحبب، بين ما هو عليه "أفتح فمي وأقول أنا حنا يعقوب"¹. وما صار إليه "سليمان كانت الكلمة الوحيدة التي لفظها عندما سأله الراعي عن اسمه"²، تؤكد هذه التحوّلات المتواصلة لتجارب حنا في استمراريتها الزمنية على دينامية الهوية السردية. إذ أن المزج بين خواص حنا الثابتة وسماته العارضة، هو ما يستطيع تسمية هويته السردية وفقاً لم يذهب إليه بول ريكور الذي يرى بفاعلية ما سبق في تشكيل نوع من الهوية الدينامية المتحركة الموجودة في الحكمة التي تصنع هوية الشخصية. أي أننا أمام هوية غير ثابتة متغيرة مع الزمن³ ينفي هذا أن تكون الهوية معطى جاهزاً، فهي تتشكل على الدوام⁴ بوصفها كينونة مستمرة داخل الفضاء الاجتماعي المنبعثة منه وفيه والذي يعيد بناءها على الدوام و بما أن هذا الفضاء منفتح على الآخر المغاير فإن الهوية ستظل حيوية و حية"⁵.

إن طبيعة الذات التي يحملها حنا يعقوب في تحولها المدعوم برغبته في النجاة، ستبقى متمسكة بكل المقومات التي شكلتها بداية، فكونه مسيحي سيظل الضابط لعلاقاته الممكنة والمحتملة مع الدروز، غير أنّه ولكون الآخر "الدروز" حاملين لمقومات مغايرة على مستوى المرجعية الدينية فإن حنا سيسعى لصياغة نفسه وتشكيلها بالكيفية التي تكفل له التلاؤم مع الآخر (الدروز) وهو ما يؤهله لتحقيق نجاته.

إن صياغة هذه الذات وتشكيلها لا يتم إلا عبر السرد، لذا نصطلح عليها بالذات السردية وهو ما تلبسه حنا على طول الحكى وعبر توالي السرد - شخصية سليمان غفار - إننا نفترض بذلك أن ذات حنا الأولى هي ذات شخصية تروي عن نفسها، إنّ ذات حنا السردية هي نتاج ثقافة الشخصية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمقدرتها على الاختلاق والتخييل.

إنّ عملية بناء هذه الذات العارضة تتم بوساطة من السرد، ومن خلال التأكيد على ارتباطها بفضاء معين، وبإخلاصها لأيديولوجية تتوافق مع تلك الخاصة بالدروز، فهل تتعلق المسألة هنا بتشكيل الذات

¹ - ربيع جابر، دروز بلغراد ص 210

² - المصدر السابق ص 216

³ - أمين معلوف، الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون، دار الفرابي، بيروت، لبنان ط 1، 2004 ص 17

⁴ - محمد عابد الجابري: مسألة الهوية والعروبة والإسلام والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان ط 4، 2012، ص 17.

⁵ - ينظر: سعيدة بن بوزة الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي، دار نينوى، دمشق، 2016، ص 35.

أم باسترجاعها بعد أن تمت إزالتها ومسحها ؟ أم أنّ الفضاءات المغايرة والآخر المختلف هو ما اضطره لإعادة تركيب هويته وتنظيمه وفقاً للمعطيات المستجدة في كلا السياقين يجد القارئ نفسه يكتشف ذاتاً سردية لها فرادتها وخصوصيتها وتباينها عن الذات الشخصية .

المبحث الثاني: مركبات الهوية السردية

المطلب الأول: الفضاء و تشكل الهوية الطائفية :

تجاوزت الدراسات الحديثة النظرة التقليدية للفضاء والزمان ككيانين منفصلين ،بعد نظرية أينشتاين النسبية، وبات يُنظر لهما بوصفهما متواشجين بشكل لا يقبل الانفصال ،والمسألة هنا لا تتعلق بتحريك الزمن داخل فضاء ثابت بل بكون كل منهما مشكلاً للآخر .

من المَلح في هذا السياق إدراك التجارب البشرية كتوزع داخل الفضاء، ذلك أن التفاعل الإنساني يحدث في فضاءات خاصة لديها مجموعة متعددة من المعاني ، لقد وظف ربيع جابر الفضاءات هنا بطرق متفاوتة ، مؤدية مجموعة من الأنشطة، ذات معانٍ ثقافية مكننتها من التشكل كأماكن مشحونة وجدانياً ، يتعدى الفضاء هنا كونه هوية مستقلة من هويات العمل الروائي إلى كونه متدخلاً في بنية الهويات الأخرى وعنصراً أساسياً في تعريفها بذاتها.¹

إن حنا كهوية مستقلة نسب نفسه عبر توالي السرد إلى فضاءين يرى ذاته فيهما أنا حنا يعقوب . مسيحي من بيروت يبتني على حائط كنسية مار إلياس الكاثوليك²

إنّه يرى تحققه عبر بيروت و الكنيسة كفضائين مشكلين لذاته ، وفي مقابل النسق الديني الذي يستمد حناً هويته منه، يأتي الفضاء معزلاً لتلك النسقية الدينية ، إنّ ورود الكنيسة كفضاء له رمزيته عند المسيحيين، خلف لفظة مسيحي يؤكد على الهوية التي يراها حنا في ذاته.

لا يتوقف الفضاء عند كونه مشكلاً لهويات الأفراد في الرواية بل يتعدى ذلك إلى المساهمة في تغيير هوية الحكمة وخلخلة مسار الأحداث السردية ،إذ أن تواجد حنا في الفضاء غير المناسب هو ما جعله

¹ - ينظر : حسن نجمي : شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت،

لبنان، ط2000، ص1، ص59

² - ربيع جابر: دروز بلغراد ،ص25.

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

يخوض تجربة النفي والتعذيب، "حين أطل على ساحة الترحيل جمده المنظر المخيف"¹ يظهر الفضاء هنا محملاً بتقاطعات متضاربة إذ أن باب المرفأ الذي كان موقعه المفضل الذي يكسبه مزيداً من الرزق بات سبباً في نفيه .

يتواشج الفضاء مع الزمن ليسوقاً حنا لمصيره . "مرّ سريع الخطى نصحهم بأن يعجلوا عادة يلتقيهم أمام جامع السراي"² أي أن نجاة رفاقه ووقوعه هو في المأزق كان مرتها بزمان وفضاء معينين ، إنّ الارتحال الذي عرفه حنا . نتاجاً لذلك ليس مرتبطاً بخروجه من فضاء إلى فضاء آخر بل من كونه المسيحي الذي منزله أمام الكنيسة إلى كونه درزي من بلغراد. إنّ بناء جديد تشهده هوية حنا ، مركب هو الآخر من الفضاء ، وهو الذي تحمل الرواية اسمه، إنّ وعي ربيع جابر بأهمية الفضاء جعله يركز الفضاء كمرجعية ليستمد منها عنوان عمله الروائي .

يسوقنا هذا للقول بأن أي "استبعاد أو تجاوز للفضاء كمفهوم فاعلي هو بالضرورة اضطهاد معين لإحدى هويات الخطاب الروائي"³. يضاف إلى ذلك أنه كلما تضاعف حجم الارتباط بفضاء الهوية، قادنا ذلك إلى الوعي بالفضاءات كعلائق دينامية. "جلس حنا على الأرض هذه هيلانة أنا في البيت"³ إنّ خلوّ الأمكنة من الذات يجعل الفضاء هو الآخر خالياً من المعنى . لذا فإنّ القارئ هنا يجد نفسه مجبراً على مجابهة الفضاءات الواقعية والأحداث والعواطف المتضاربة ، لا بمنطق الواقع ولا كتصور حسيّ، بل كإنشاء إبداعى يمنح الكتابة اكتفاء مادياً و يصيّر الفضاء مركباً من مركبات الهوية.

تبقى الفضاءات آثارها وبصماتها الجلية على الشخصية بأبعادها المختلفة فنفسياً: حنا الذي كان سليماً وسوي الفطرة بات يعاني من انحرافات جنسية بفعل مكوثه الطويل في سجن بلغراد، وهو ما يبرر استغرابه لانتصابه حال اقتراب الرجل منه "أتشبث بالرجل المذعور الغريب أن عضوي ينتصب"⁴ إنّ حنا الذي كان منشراحاً ضاحك الوجه أصبح بكاءً وهشاً بعد أن كان قويا. أما جسدياً: فحنا البيروتي قوي البنية صار يستغرب "من أين تأتي القدرة لجسده المحطم"⁵ .

¹ - ربيع جابر : دروز بلغراد، ص22

² - نفسه ص21.

³ - ينظر : حسن نجمي: شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية ، ص59.

⁴ - ربيع جابر : دروزبلغراد ، ص11

⁵ - ربيع جابر : دروز بلغراد ، ص13

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

وفي المقابل فإنّ الجانب الثقافي من هنا لم يكن بمعزل عن التغييرات، التي طالت جوانبه النفسية والاجتماعية والجسدية إن مكوثه الطويل في تلك الفضاءات جعله يكتسب ويضيف لغة إلى رصيده الثقافي "لغة تعلمت نتفا منها في القلعة البيضاء"¹

إن هذه الأبعاد التي يسبغها الفضاء باختلاف أنواعه على الهوية الشخصية لحنا يعقوب والدروز على حد سواء يسوقنا للتأكيد على "وجود تأثيرات متبادلة بين الشخصيات والأماكن التي تقيم فيها"². ذلك أن باستطاعة الفضاء الروائي نقل الجوانب اللاشعورية التي تكتنف الشخصية .

إن التجارب الإنسانية تعاش في المكان ومنه تروى الحكاية . المكان الدينامي الذي يحيل بدلالة خاصة على تشكل كيانات أيديولوجية وثقافية واجتماعية (الكنيسة، المسجد، السجن) ليس ساكناً ولا ثابتاً بل هو ناقل لدلالات دينية ورمزية .إننا في رواية دروز بلغراد أمام أماكن تم اجتثاثها من الإطار الطبوغرافي ليتم إدراجها وقراءتها ضمن سياق تأويلي ، ليشكل المكان بذلك بعداً سيكولوجياً من أبعاد الشخصيات .

المطلب الثاني : سرديات الشتات وبناء الحبكة السردية :

إن ما يتصل بالهوية ومركباتها يعتبر من أبرز تجليات خطاب الشتات ، إذ أنّ أغلب حالات النفي الجبري مردها المرجعية الأيديولوجية والدينية للمنفي. وإذا أدركنا أن سبب النزاع بين الدروز والمسيحيين مستمد من عقيدتهم وأن الموارد في الرواية كانوا مهددين بسبب انتسابهم للمسيحية، جاز لنا القول أن "الانتماء الديني هو الذي يختزل هوية كل منهم"³

وبناء على ذلك يتم ترحيل الدروز كرها من بيروت لتخوض هذه المجموعة العرقية تجربة النفي المتمسم باللاثبات ، ابتداء من بلغراد إلى الهرسك مروراً بالبوسنة وصولاً إلى صوفيا وبعدها كوسوفو ثم الجبل الأسود انتهاءً بمقدونيا . يعرج خلالها الكاتب على مدن عدة وقرى شتى ، ويسترجع في مساره السردى المجازر الدموية للصرب في حقّ المسلمين عبر تضمينه لمحكية الإطار :محكيات فرعية يوكل لحنا رويها تارة وللدروز تارة أخرى، ولذا فإنّ وضعية اللاإستمرارية في الوجود أو سياق الإرجاء الممثل لحالة

¹ - المصدر السابق ص10 .

² - المكان الضائع في سرديات الرواية الإفريقية ، أحمد شحيمط ، مؤسسة هنداي ، المملكة المتحدة ، 2021، ص23

³ - أمين معلوف : الهويات القاتلة ، ص16 .

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

حنا والدروز المنفيين. يسوقهم إلى مأزق الهوية - فتحول مفهوم الوطن والبيت والبيئة المحلية مع كل ما تواجهه هذه الفضاءات في إدراك المنفيين وفي عقلهم الباطن على حد سواء من أزقة وشواطئ وأشخاص ومن الأشجار والحيوانات، تنفضي إلى تحولات في إطار المرجع الذي تبنى عبره هويّات المنفيين، وبذلك يغدو الخيال متنفساً وفعلاً للمقاومة¹. إنّ شعور اللاانتماء والغربة المنتج من طرف فضاء يعجز بالإقصاء ونفي الآخر المختلف والهيمنة عليه وانتهاك حقوقه وهو ما يدفع بحنا للسعي في تشكيل تحالف مع بعض المساجين حتى يكفل الحماية لنفسه.

إن هذه الدرجة من الحساسية ناتجة ليس فقط من كونه مشتتاً و تائهاً في أرض تسعى لاستلاب ذاته وهويته، بل لأنه يعيش نوعاً من العزلة الطويلة والقلق الدائم فهو يشعر بأنه مستهدف بسبب مرجعيته الدينية، إن الدروز من حوله لا يكفون عن النظر للمسيحيين بوصفهم طرائد ضالة متاحة للقتل والتكيل لقد أدرك أنه يذكر من عبارة "هذا المسيحي المسكين مرة و من هذا الحمار المسيحي مرات أخرى"² لقد باءت كل مساعي حنا في إعادة تشكيل ذاته وفقاً لمتطلبات المنفى ومقتضياته وشروطه بالفشل، ما يؤكد حقيقة أنّ المنفى يحمل على الدوام ذاتاً متشظية وممزقة من الصعوبة بمكان إعادة تشكيلها في حالة وجودية منسجمة مع نفسها أو مع غيرها.

المطلب الثالث : تفاعل الزمن و التاريخ و تشكل الهوية الثقافية :

تتموضع الرواية هنا بين مرجعتين تشكلان هوية الحبكة و هوية الشخصيات أولهما التجربة (المنفى/ السجن) أوالزمانية باصطلاح ريكور وثانيهما التاريخ (تحريك التجربة) في حين يقوم التخيل كنسق بوظيفة الوساطة بين تعالقات النسقين دون إغفال أن التجربة الإنسانية لحناً والدروز ذات طبيعة زمانية . اعتمد جابر في سرده على تقنية التوازي بين حكايتين (السجناء - الزوجة) مع التمسك بخيوط الرواي العليم بالأحداث بترك هامش لضمير المتكلم . فالعوالم التي تفتقرها الأعمال السردية هي بالضرورة عوالم زمانية، ذلك أن الزمن يتحول إلى زمن إنساني ما ظلّ يطرد وفقاً لاطّراد نمط السرد، إنّنا هنا إزاء تجربة لا تعترف بأحادية الزمن و انتظامه بل بخلاف ذلك لكل شخصية زمنها الخاص وإن كان الحدث واحداً ، فالوتيرة مختلفة . أي أنّ أزمنة السرد لم تكن متكافئة ، ففي الوقت الذي تسارعت فيه

¹ - أحمد عراب : آلية اشتغال النظام الوصفي من منظور النقد الروائي "الرواية الجزائرية أنموذجاً"، مجلة جسور المعرفة، جامعة

حسبية بن بوعلي الشلف، العدد 09، مارس 2017، ص 16

² - ربيع جابر : دروز بلغراد ، ص 35

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

ونتيجة أحداث السجن كانت هيلانة تعيش زمناً شبه متوقف . إنّ زمن الانتظار الذي يشوبه التوتر و القلق هو دائماً زمن أطول ، إذا ما قورن بزمن جارة هيلانة أم سمعان " ظلت سنوات تبكي في العتمة و تصلي من أجل زوجها " ¹

إن بكاءها المستمر يؤكد أن حدة الحدث لم تخفت رغم طول العهد . وتحقيقاً من الكاتب لمفارقات جنيت genette الزمنية فإننا نجد في المقابل الزمن النفسي لحنا زوج هيلانة شبه متجمد إنه يعيش تأنها في اللزمان. وهو ما أشار إليه الكاتب في آخر الرواية "دون وعي أوشك أن أصبح كما في السنين البعيدة بيض بيض" ²

"خرجت في الصباح أبيع بيضا و الشمس لم تطلع قبل 11 سنة وكأن الزمن توقف في البيت الصغير على حائط كنيسة مار الياس لكن هذا مستحيل هذا كله منام؟ كابوس؟ مازلت في الحبس في البلقان" ³ لقد كان حنا يحلم ببيته طوال مدة سجنه لكنه لما عاد شعر انه كان يحلم ولم يتغير شيء ، إنّ اعتماد الراوي على السرد بمنطق الرؤى جعل الزمن يترواح بين الركود والثبات ، وبذلك يغدو الحلم هنا مناصاً للفرار من الإرباك المترتب عن سوداوية الأوضاع.

و بالعودة إلى التخيل الذي يؤسس لأرضية تجمع التاريخي و السرد في بوتقة زمنية واحدة فإنه - التخيل - يقوم بوظيفة تكوينية في تمثيله لتجربتي النفي و السجن و في خضم ذلك يعمل على تحديد الرابط بين التاريخ بما هو وقائع وأحداث . والسرد بما هو تمثيل لهذه الأحداث . وهو ما يجعل الإجابة عن سؤال أين ينتهي التخيل و يبدأ التاريخ في دروز بلغراد عصياً ، ذلك أن ربيع جابر هنا يوهنا بالتاريخ خاصة إذا علمنا أنه قام بتذييل عمله بمصادر مؤكداً اعتماده على مخطوطات ، يضاف إلى ذلك استلهامه لأسماء واقعية من التاريخ ، ورغم كلّ هذا فإن توالي السرد يفنّد ذلك و يؤكد على اعتماده بقوة على التخيل . إنّ الروائي و إن كان لا يولي إشكالية تماهي التاريخ بالسرد أي عناية ، غير أن ذلك لم يمنعه من الاتكاء على التاريخ و استحضاره لنقد الواقع . إن الكشف المعرفي للتاريخ و مساعلته يجعل التاريخ يتمظهر كحالة إنقاذ ، ليؤكد الروائي بذلك أننا حتى نفهم يجب أن نتذكر .

¹ - ربيع جابر دروز بلغراد ص، 195

² المصدر السابق ص 196

³ المصدر نفسه ص 200

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

يمنح الكاتب التاريخ الذي يستدعيه بعداً تخيلياً رمزياً، إذ يظهر لنا جلياً من خلال المدّة التي قضاها حنا منفياً أنّه يتقاطع مع أوديسيوس الذي قضى هو الآخر 12 سنة من الضياع، كما أنّ وصف حنا بالخروف فيه استلھام لفكرة الأضحية من التراث الإسلامي، وفي المقابل فإن عمله في البيض وحديثه الدائم عنه يحمل هو الآخر في رمزية عيد الفصح المسيحي أي أن الراوي قابل بين رمز ديني في عيد إسلامي برمز آخر في عيد مسيحي، إن إدراكنا لرمزية الولادة الجديدة التي يحملها البيض في الثقافة المسيحية، يجعلنا نقر بأن حنا هنا ولد من جديد مع الدروز ما جعله يتطهر من مشاعر الضغينة والحقد تجاه الفئة التي كانت العدائية هي النسق الوحيد الذي يجمعهما، إن هذا القفز بين الأساطير التاريخية من جهة و التراث الإسلامي و المسيحي من جهة أخرى، يثبت الروائي من خلاله أنّنا لسنا سوى حلقة من حلقات السلسلة الإنسانية. ولهذا تظهر هوية حنا هوية هجينة إنسانية. إن ربيع جابر بذلك يتقاطع مع هومي حين يرى أن الأمم تماماً كالسرديات تفقد جذورها في خضم الزمان و أساطيره، ولا تستعيد أفقها إلا من خلال الخيال. يجرنا هذا للإقرار بأن الماضي ليس ماضياً متخيلاً حصراً ولا واقعياً بالضرورة، لكنه وفقاً لريكور موضوع يستحيل التأكد منه لأنه باقتضاب غائب وجودياً، ولذا فخطاب التاريخ أو السرد التاريخي لا يمكن التعامل معه إلا بطريقة غير مباشرة ومن هنا يلزمنا الاعتراف بصلة القرابة بين السرود التخيلية و التاريخ. ذلك أن وظيفة المخيلة هنا تشكيل الماضي و بناؤه من جديد. إن ما أتى ريكور على مقارنته في علاقة السرد بالتاريخ وفاعليتهما في تكوين الهويات السردية هو ما يديننا من التصورات التي يسوقها هايدن وايت لآلية تشكيل التواريخ أو تكوينها، و بربطنا للهويات مع التواريخ من وجهة نظر هايدن سندرك كيف أن الهويات في دروز بلغراد تستجيب حقاً لعملية التسريد أو السردنة identities narativisation لمختلف عناصرها ومركباتها.

المطلب الرابع: حيوية الوصف في التحريك السردى:

يعتمد التحريك السردى ضمن الرواية التاريخية على دينامية الوصف في تقديم مادته، يأخذ الوصف على عاتقه بناء على ذلك تصوير الفضاء وما يلحق به من مركبات، أي أنّ خلو العمل الروائي من الوصف هو إفراغ له من هويته الوظيفية، وبموجب ذلك فإنّ احتمالية استغناء الوصف عن السرد أقوى إذا ما قورنت بإمكانية تخلي السرد عن الوصف، ذلك أنّ كل إشارة إلى عناصر الحدث تشكّل وصفاً له،

تمثيلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

إنّ استدعاء المكان بمظاهره الخارجية والشخصيات بعوالمها الداخلية ونقل الأحداث كل ذلك يفرض علينا توصيفها لتصويرها كما هي ، وهو الحال في متخيل "دروز بلغراد" الذي يتعلق فيه السرد بالوصف ، وبما أنّ فضاءات المدن التي مرّ بها حنا و الدروز لا تستقل عن مكوناتها ، فإن الوصف يتمركز داخل الحلقة السردية استناداً إلى مقدرته على ضمّ واحتواء جميع مركبات النص السردية.

لقد اعتنى ربيع جابر بالوصف التفصيلي للأحداث والمشاهد والشخصيات خلال سرده ، وبما أن الرواية تنتمي لأدب السجون فإن ربيع هنا يلجأ للوصف الدقيق الذي يصور معاناة المساجين الدروز وحنا بالأخص باعتباره تعرض للسجن والتعذيب وتحمل المعاناة بالوكالة ، لقد حشد ربيع جابر منتجه السردية بالإشارات الوصفية المزدحمة بالحس العاطفي والجمالي ، ينبع ذلك من إدراكه لوظيفية الوصف في توطيد العلاقة القائمة بين مشهد المدينة (بيروت) من جهة وبين الحالة التأملية لحنا يعقوب ، ومن وعيه بكون "الوصف آلية استبطانية و استكشافية ركيزتها الأساسية التفاعل بين الواصف والموصوف"¹ أو بين الشخصية (حنا يعقوب) والمكان (بيروت)، فتح حنا عينيه ورأى جبل صنين برتقالياً لم يصدق رأى مدينته في الأسفل صعقته المفاجأة أطلت بيروت مثلثة المآذن كما يتذكرها مغمورة بنور الغروب دارت الطيور في أقواس فرحة كأن الرب أقام المدينة على هذا الشاطئ من أجل هذه الساعة شعر أنّه في حلم يؤكد هذا المقطع على أن تدخل الفضاء كمركب حيوي في هوية حنا الشخصية والعينية على حد سواء لم يكن ليصل في غياب الوصف، ذلك أن الوصف باعتباره يستمد مادته ويشحن آلياته من الخصوصية التي تحملها نفسيات الشخصيات الروائية يجعل من استبطان الذات أمراً عصياً، إذا لم يكن هذا الاستبطان مدعوماً بنسق الوصف ، يسوقنا ذلك للإقرار بأن الواقع الروائي لا يقوم ولا يستقيم إلا بإضافة عنصر الوصف مركباً أساسياً في صياغة هويات الأفراد وتشكيل ذواتهم السردية ، لقد عمد حنا يعقوب بوصفه الشخصية المحورية إلى استشراف صور المدينة الضائعة بمنطق الحلم من خلال استنكاره لأوصافها " يتذكر الطريق أول المساء من المرفأ إلى البيت ... يرى البرج الحجري لكنيسة مار إلياس ... يطل من وراء جامع السراي هذا البرج بجرسه النحاسي امتداد لبيته يتذكر صف الدكاكين الصفراء ... الوجوه الودودة ترد تحيته ... الإسكافي الأبيض الحاجبين "² يؤشر هذا المقتطف السردية إلى وظيفة الذاكرة الحيوية في صياغة واسترجاع الهوية الضائعة لحنا من خلال استدعاء الأوصاف ، إنّ جملة الأوصاف التي خص بها الأماكن التي يعتبرها امتداداً لذاته تتيح له نوعاً من الاستمرارية الزمنية وإن

¹ - الصادق قسومة : علم السرد (المحتوى والخطاب و الدلالة)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 2009، ص341.

² - ربيع جابر : دروز بلغراد ، ص113

تمثلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

كانت زائفة إنه في خضم كل التغييرات التي جعلت هويته تتوتر يرتحل في أوصاف الفضاءات التي عهدها قبل المنفى بحثاً عن هوية مستقرة ، وبذلك "فالوصف يمنح الأحداث والذكريات دلالتها"¹ ويوفر للتجارب ترابطاً يعزز الهوية السردية ويثبتها . تضي تلك الوقفات الوصفية على المنتج السردى صبغة تشي بواقعية الأحداث كما تعين على خلق شخصية تتوافق والحالة النفسية لحنا وهو ما يتقاطع مع يراه لوكانتش في أن براعة تشكيل الشخصيات منوطة بمقدرة الروائي في اكتشاف بواطن الشخصيات .

إنّ وظيفة الوصف في سياقات تسريد الهويات لا تتوقف عند نقل الأحداث كما وجدت ، كما لا يقتفي بتصوير الوقائع فقط بل يتجاوزها إلى تحصيل نوع من التعالق بين الأحداث والشخصيات التي تعيشها ضمن إطار سردي مقنع .²

خاتمة:

من خلال مقارنتنا لهذا المنجز السردى و محاورته وصلت الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج أهمها :

- شارك الفضاء بدلالاته المختلفة في إرساء مرجعيات الهوية الذاتية وهندسة أبعاد الهوية الجماعية بما يشي بالغرابة والفقد أحيانا وبالظلم والاضطهاد أحيانا أخرى ونتاجا لذلك فقد تجلت هوية حنا في إطار يعج بالاغتراب والفقد والخوف والاستوحاش.
- كان للزمن حضور مكافئ لحضور الفضاء ومتواشج معه ومن خلاله ظهرت الهوية الشخصية لحنا موكلة للزمن أمانيتها وآلامها.
- يستقر الكاتب على ما مفاده أن الهوية تجمع بين الليونة والدينامية وتتسم باللاثبات ذلك أنها تغير من ذاتها وفقا لما يحيطها ولا تستقر على حال.
- تمحور العمل الروائي على وقائع متتابعة و واسعة ، تتراوح بين المحكى الرئيسى والمحكيات الثانوية التي يستأثر بها، ليخلق بذلك حبكة متواشجة ومعقدة ، ما يؤكد على أن بناء الهوية السردية منوط بالحبكة وما يتصل بها.

¹ - ينظر :أحمد عراب : آلية اشتغال النظام الوصفى من منظور النقد الروائى "الرواية الجزائرية أنموجا "، مجلة جسور المعرفة، جامعة حسيبة بن بوعلى الشلف، العدد 09، مارس 2017، ص37.

تمثلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

• اهتمام الرواية برصد التحولات الطارئة على بناء الشخصية من خلال تمركز الحكي على شخصية معينة ما يتيح لنا استقصاء وتقفي الطريقة التي بها تتشكل الهوية الشخصية ليس هذا فحسب بل معاينة تحولاتها سواء تعلق ذلك بالشخصية الفردية (حنا، قاسم ، هيلانة، نعمان...) أو بالشخصية الجماعية (الدروز ، المسيحيين)

السرد في متخيل دروز بلغراد تماماً كما في الرؤية الريكورية يتموقع بوصفه مكوناً للهوية كما أن السرد هنا يبعث الهوية في صياغة جديدة تماماً كما يفعل التحريك بالتاريخ في صوغه له وإعادة تشكيله ما يثبت سردية الهوية. باعتبار السرد جامعاً وناظماً لما تتأفر من عناصر الهوية ضمن نسق منسجم وذو حبكة متماسكة

إن حالة العداء المتطرف الذي كان الدروز يكنونه للمسيحيين ثم في المقابل احتوائهم لحنا المسيحي ومحبته لهم تجرنا للجزم بالطبيعة الهلالية والمضطربة للهوية إذ تتسم بنوع من اللا استقرار والتغير الدائم تتفتح الهوية السردية على الهجنة نائرة بذلك على النظرة النمطية للهوية كمعطى جاهز ومشارك بين الجماعات وتعتبرها في المقابل ممارسة يتحول مدلولها و أثرها بتحول سياقاتها .

قائمة المصادر والمراجع :

أولاً: الكتب:

أ/ المصادر:

- ربيع جابر : دروز بلغراد - حكاية حنا يعقوب - دار الآداب للنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان - ط1 2011 .

ب/ المراجع :

- أحمد شحيط، المكان الضائع في سرديات الرواية الإفريقية ، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة ، ط1 ، 2021 ،

- أمين معلوف ، الهويات القاتلة ، ترجمة نهلة بيضون ، دار الفرابي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2004

- الصادق قسومة : علم السرد (المحتوى والخطاب و الدلالة)، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2009،

تمثلات الهوية الفنية والثقافية في سرديات المنفى رواية دروز بلغراد نموذجاً

- بول ريكور ، الوجود والزمان و السرد فلسفة ترجمة سعيد الغانمي ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، الطبعة 1، 1999
- حسن نجمي ، شعريّة الفضاء المتخيل و الهوية في الرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2000
- سعيدة بن بوزة ، الهوية و الاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي ار نينوى ، دمشق 2016
- محمد عابد الجابري ، مسألة الهوية و العروبة والإسلام و الغرب مركز دراسات الوحدة العربي ، بيروت لبنان ، ط4، 2012

ثانيا : المقالات

أحمد عراب : آلية اشتغال النظام الوصفي من منظور النقد الروائي "الرواية الجزائرية أنموذجاً" ، مجلة جسر المعرفة، جامعة حسنية بن بوعلي الشلف، العدد 09، مارس 2017.